

﴿ خواطر ﴾

« في الخيرات والشرور »

ترك الأولون من البشر للأخلاف كثيراً من الخيرات ، وخلقوا لهم وافرأ من الشرور ؛ وقد مرَّ الدهرُ تلوَّ الدهرِ ، وجاءت أجيالٌ خلف أجيال ، وتلك الشرور ثابتة لم ترحزحها العقول ، ولم تمتنع عليها النفوس ؛ بل كأنَّ السعيد الفأز من الاخلاف ، هو المحتفظ الضنين بذلك التراث ، فاذا ما تأملنا في أبدية هذه الأسواء وشبه ازليتها ، وجب علينا ان لا ننظر الى محافظة الأجيال على تلك التركة المباركة بنظر التهاون ، وان لا نجعل علتها التصادف ، بل يجب ان نحني الرأس قليلا امام ما هنالك من المجهولات التي اقتضت هذا الأمر ، عسى ان يُفتح لنا بابٌ من ابواب العلم بعد تأدية هذه السجدة الاعتراف بوفرة اسرار الكون وعظمتها ، وليس ما يخفى على اكثر البشر إلا من الاسرار ولقد اختلف كثيراً نظراً المفكرين في الموازنة بين الخير والشر ، ومآل الأقوال كلها الى ثلاثة : من يرى ان الشر أكثر ، ومن يرى ان الخير أغلب ، ومتوسط يرى ان بين الخير والشر تعادلاً مع رجحان خفيف لجانب الخير

يقول مغلبو الشر : ألم ترَ ايها الانسان الى كثرة الامراض ، ووفرة الأحزان ، وشدة العدوان ، وغلبة الحرمان ، وشيوع الشكوى ، وعموم البلوى ؟ .. ألم ترَ كيف يقلُّ أولو اليسار حتى يستطيع عدُّهم ، وكيف

يكثر المسرون حتى يفوقوا العدد ، ويبي عن لحاقهم المقدار ؟ . . ألم تر كيف يشيع الجهل حتى يصعد كل تلة ، ويهبط كل واد ، ويدخل كل بلدة ، ويزور كل بيت ، ويحل كل دماغ ، وكيف يتقاصر العلم ، ويتقاص ويختبئ وينطوي حتى تُشدَّ إليه الرحال ، وتُحمل في سبيله الاثقال ، وتُبدل في التفتيش عليه الاموال ، وتنفق فيه السنون الطوال ، حتى اذا ما اهتدى الطالبون الى جنابه ، وجدوا حوله طائفة من الحواجز ، فيرجع بأكثرهم الملل والضجر واليأس ، وما يفوز باقتحام تلك الحواجز الا قليل من الطالبين ، وما الطالبون بكثير . . . ألم تر الى العقول السليمة - على قانتها - كيف يؤذيها الجهل المُجذِر^(١) بما اخترع من حكايات وتهاويل ، وكيف يسمها العلم الا بتر بما وضع من شروح وتاويل ؛ والى النفوس الكريمة كيف يقززها ظهور القبيح واذاعته ، وكيف يؤلمها خفاء الجميل واذاعته ؟ . . وانظر الى الشهوات كيف تطنى ولا تقف عند حد ، وكيف قضت علينا بالاستمرار في النصب ؛ وانظر الى قلة من تألفه النفس ، والى كثرة ما يحول مع هذا بينها وبين إلفها ، والى ما يصيبها بعد هذا كله من سهام الفراق ، وما يبروها بسببه من الجوى ؛ وتأمل في قصر الآجال مع طول الآمال ، وقلة المعاضدين مع كثرة المعاندين ، وضعف الوسائل مع قوة الرغائب ، وتهجم الظلمات مع تحجب النور ؛ وارم بصرك الى كثرة الزمنى والمبرسمين وأرباب العاهات ، ولا تتغافل عما يرافق العجز والاحتياج من المهانة ، وللأحاسيس بالمهانة الآام

عظيمة ، وقل لي بعيشك ما أكثر العجز والاحتياج في هذه الحياة ؛ بل قل لي أي الناس يفارقه شيء من العجز وشيء من الاحتياج ؛ هيك مليكاً ، ألا ترى أنك عاجز عن كثير ، ومحتاج إلى كثير ؛ فإذا يخامر قلبك كلما وجد طعم العجز ، وماذا تجده نفسك كلما ذقت الاحتياج ، وما هذه الدنيا التي لم يسلم من آلامها صغير ولا كبير ، ولا جليل ولا حقير ، ومتى يكون خيرها أكثر من شرها إذا كان هذا شأنها من ادخار الآلام لكل ذي روح على اختلافٍ وتفاوتٍ بينهم في المقادير فقط ؟

ويقول مغلبو الخير : لقد جعل الفاطر لنا البصر لئلا نرى به كل محسوس ، وأكرمنا بالبصيرة لنطلع بها على ما وراء المرئي ، وقد ملأ السموات والأرض بما لا يعدُّ ولا يحُدُّ مما يبهج النفوس ويسرُّها ، فلماذا تعمي الأبصار والبصائر عنها كلها ، ولا ترى إلا الأمراض وآثارها ؛ أفندى نعم الشمس ، أم آلاء الأرض ؛ أفسخى البحر تنسى أم استخدام البر ، أنقل عما يُفيضه التعاون البشري العام من بركات العقول ، وثمرات الهمم والنفوس ، أم عما توحىه الفطرة الانسانية من تعاطف القلوب ، وما تؤتیه من لذيذ العلاقة بين المحبِّ والمحجوب ؛ يا للعجب كيف تقع الأبصار على بعض الأقداء ، وتمجز عن أن تمسحها بالنفاتة إلى روضة فيها أطيب الأتوات للسمع والشم والبصر ؛ أين ذهب عن الأبصار جمال هذه القبة الزرقاء وقد طرحت عنها جلباب الغيوم ، وحسرت لثام الدجوت ، فأشرق محيَّاتها ، فقابلته الأرض راقصةً تترنح أعطافها الأغصان ، وتصفق أكفها النسايم ، وأين ذهب عن البصائر جمال الحي

القيوم الذي تفتح من روحه في والد هذه الذرية المباركة الحاملة لواء
خلافته في الأرض (نعني النوع الانساني) ألا ترزق البصيرة تجلياً من
تجلياته تضيء به الدنيا كلها لها فلا يبقى أمامها إلا مسابح نور، ومسارح
آمال ورجاء وسرور

لو صحَّ أن الشرَّ في هذه الدنيا هو الأغلب ، لكان سير هذا النوع
الانساني الى ما هو أقبح وأتقص ، لا الى ما هو أجمل وأكمل ، مع أن
المشاهد هو أنه كان طول دهره سائراً الى التكمّل ، وآخذاً بالتعلي
والتجمل ، فلقد كان الانسان كهذه الحيوانات السارحة في القفار ، أليف
آجام وحليف أوجار ، يدور يلتمس لما كله ورقاً وعشباً ، ويردُّ القدران
والأنهار فيمبّ منها عباً ، لا يزرع ولا يصنع ، ولا يقني ولا يجمع ،
لا أداة لديه ولا ماعون ، ولا عهد عنده ولا قانون ، ثم قفز من بيئته
تلك قفزةً إذ ألهمه الفاطر أن يتخذ شيئاً من الأداة ، فاصطنع من
الحجارة قواطع وقواشر ونواحت ، وفصل بهذه الأدوات الحجرية ما
شاء أن يفصل من أعواد الشجر على حسب ما هدته اليه الحاجة . فعمل
من الأعواد مخيطاً ومساراً ، ومخرزاً ومحفاراً ، ومقياساً ومعياراً ، وظلّ
كذلك يتدرّج بهذه الصناعات الابتدائية حتى توصل الى الحديد ،
وهدي الى معرفة التصرف فيه فيومئذٍ دخل في دور جديد فصله عن
الأدوار الاولى ، ومن بعد ذلك بدأ يأتي بالبدائع والظرف من الصناعات
حتى أصبح ينسج وماعونه وآنيتة وأكسيتة وأثاثه ورياشه وسائر ظرف
زينته أشياء لا تقف عند حدّها وقد تحسنت عند ذلك سحتته وبنيتة ،

وتهذبت طباعه ، وانقلب شتاته اجتماعاً ، وفوضاه نظاماً ، وبلغ من العلم حظاً تقصر كل مبالغة عن وصف عظمه ؛ وما الجهل الباقي بشيء يصح أن يسمى عقبةً في سبيل سلطان العلم الماضي الحكيم لأن كثير الجهل قليل ، فألف ألف جاهل مثلاً يستطيع أحد العقلاء أن يجعلهم تابعين لكلمته كما تتبع الغنم صوت راعيها . . . هذا وما نحن بمنكرين كثرة الشرور ، ولكننا مع كثرتها قلما رأينا شيئاً منها إلا ورأينا أمامه قوى بها يحتمل الناس شدائدنا . فاذا صحح أن نسمي كل شيء من الشدائد مثلاً شراً لزم أن يصح تسمية ما يقابلها من القوى خيراً على أنه ليس من الحق أن نُظير بالشدائد ، وتبرم بها ، وننقم عليها في حين أن كثيراً منها مريبات ومرفيات للأفراد والجماعات ، ويا لله كيف يكون طعم الهناء لولا العناء ؛ وكيف كنا نستطيع أن نعرف سائر الأنواع المسماة خيرات لولا ما يقابلها من أضرارها إذ لولا المرض ، لقال قائلٌ : ما هي نعمة الصحة ، ثم ما هي الفضيلة لولا الرذيلة ، وما هو الانبساط لولا الانقباض ، وما هو الذكاء لولا البلادة ، وما هو المجد والرفعة لولا المهانة ؛ فكان هذه الشرور انما وجدت ليكمل بها حظنا مما هي أضرارها

يشكو مغلبو الشر من الأمراض وبديهي ان صحة اكثر الافراد هي الأغلب فان مرض أحدهم في العمر مرة أو مرتين أو أكثر كان ذلك لتضاعف لذته يوم يرجع اليه بعد الهجر حبيبه العظيم الذي هو العافية ؛ وان كانت نهاية بعض الأمراض الموت فذلك - والموت محتوم - خير من اختطافه خطفة واحدة على حين غرة ، ولوقوع موت الفجأة في بعض

الاحيان نعرف فضل المرض الذي به يتمكن المرء من وضع بعض الوصايا
ومن التهيؤ لاستقبال الأبدية بنفس مطهرة بالندم على بعض الزلات ،
وبه يتمكن أهله من حسن توديبه فيزودون نفسه بأثمن شيء عند النفس
وهو شذى الاخلاص ، ويتزودون من مرآة برؤية أعلى شيء وهو إياه
الحبيب ان يفارق أحبائه ، فهو والحالة هذه ينشدون بلسان الحال :

ولو نُعطي الخيَارَ لما افترقتا ولكن لا خيارَ مع الزمانِ

وهم ينشدونه :

اذا ترحلتَ عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فلراحلون همُ
ويشكون مغلبو الشرِّ من الجهل ، ولو فقهوا لدروا أن ليس كل جهل
يُعدُّ شرًّا ، فانه لو أصبح كل الناس فلاسفة لحلُّ بالدوران البشري ما يحلُّ
به إذا أصبحوا كلهم أغنياء . على ان من يعمن النظر كثيراً يجد في غباوة
كثير من البشر فائدةً ليست بأقلَّ من الفائدة التي يجدها في ذكاء
بعض الافراد ، وحسبك من فوائد الغباوة لأصحابها أنهم أقلُّ تدمراً
وامتعاضاً ، فهم لا يدوقون الآلام التي يدوقها النبهاء من مشاهدتهم عيوب
مجتمعهم وتقصيره عن غيره مثلاً . وحسبك من فوائد تلك الغباوة للمجتمع
أن أصحابها لهم مما يدورون حوله من رحي الاعمال التي عرفوها شغل
شاغل عن احداث الفتن والمشاغبات التي توجع الرأس أحياناً على قلة
نفع . وتلك الاعمال التي أشرنا اليها قلَّ ان يصبر عليها سواهم مع انها
قد تكون مما تشتدُّ اليها حاجة الجمهور

وبعد فأبي شيء ينعمون مما يسمونه الشرور ، وهي إما من اللاتي

تعمُ فيهِوتِها ذلك العموم ، واما من اللاتي يقلُّ وقوعها ، فتمرُّ وتنقلب الى خيرٍ احياناً . تأملْ معها تعاضم مُصابِ اهل بيتِ بيتهم ، تجذُّ كلَّ واحدٍ يستطيع أن يهجم على نيرانِ حزنهم برشةٍ من التسلية التي يدور محورها على كون هذا الموتُ أمراً محتوماً ، وشيئاً طبعياً ، وأنه سبيل الأحياء أجمعين ، وأنه ما من اهل بيت الا وقد أصيبوا بمثل هذا على أن الفوائد التي يعرفها العقلاء في الموت يمنعهم عن إدخاله في زمرة ما يسمى الشرور

ينظرون الى الحاضر ولا يتفكرون في العواقب ، فتمظم بمثل هذا شكواهم ، تأملْ كم من فقير قد آله فقره ، فساقه حثيثاً الى السعي والاكتساب ، فلم يلبث غير قليل حتى ذاق لذة الغنى . فهل كان فقره السابق شراً أم كان باعثاً لتحصيل لذة الغنى المكتسب التي تفوق لذة الغنى الموروث ... وتأملْ كم من مريضٍ أزعجه المرضُ وأخافه ، فتذكر ما كان أهمله في الصحة ، فلما أتبع له عناق العافية هبَّ نشيطاً للأخذ بما كان قد أهمله ؛ فهل كان مرضه شراً ، أم كان باعثاً لتحصيل لذة عمل الواجب بعد اهماله ، ومولداً للذة عناق العافية بعد الصدود ... وتأملْ كم من عاجزٍ قد أقعده عجزه عن كثير مما يأتيه أولو الأشر والبطر ، فأحدث له ذلك صيتاً حسناً ، وآتاه حسنُ الصيتِ قوةً أصبح قادراً بها على نيل بعض ما كان محروماً منه ؛ فهل كان عجزه شراً أم كان موجداً للذاته من حسن الصيت ثم القوة ثم الفوز ... لعرك ليس الشراً أن لا تكون الآن قوياً ، فانك قد تهوى وتجد لذة عظيمة ؛ وكم من ضعيف

قوي ، وإنما الشرُّ أن تكون قوياً فتفقد هذه القوة . وكم من قوي قد ضعف ، فما كثرة الضعفاء العتيدين أن يقروا سوى كثرة أبواب الأمل الذي هو روح الحياة وباعث النشاط ، والخير كل الخير في هذا ، وما قلة الأقوياء المرّضين لفقد القوة سوى قلة أبواب الوجل الذي هو باعث النّمّ والانتقباض ، والشر كل الشر في هذا . فسبحان من هذا نظامه وأثر حكمته ورأفته ، والله رؤف بالعباد

ويقول المتوسطون : ان أعجب ما في الخيرات والشرور أنك تراها متقابلةً كفريقين من المسكر قد وقف أمام كل صف آخر مثله في الجانب المقابل كأنما قد وُكل إليها أن لا يألو كل فريق منها جهده في حفظ القلعة التي هو قائم عليها . بيد ان الجيوش التي نعهد لها لا تلبث ساعة أو بعض ساعة من الدهر ، حتى يقرع أحدها الآخر ويفناه ، وأما جيشا المّتن والمحن فانهما ما برحا متواقفين منذ أولية هذا النوع ، ولعلهما سيظلّان مكانهما ما دار بنا المدار ، ولكن من سير الانسان نحو التكلّم نفعه أن ثمة رجحاناً لجانب الخير على جانب الشرّ الا انه رجحانٌ خفيف جداً جداً اذ لولا ذلك لما كان الخطو الى التكلّم بطيئاً بهذه الدرجة

كل هذا قاله المفكرون . وقد أكثر مغلبو الشرّ من ترداد شواهدهم والتغني بفلسفتهم ، كأنهم وجدوا المجال واسعاً ، والنعم مؤثراً ، اذ لا أوقع في نفس المفجعين من اظهار التأمّ مثلهم ، وذمّ الدنيا التي هي مشارف جرائمهم ، ومدار منحهم ، وكثير من أهل هذا الرأي كانوا شعراء قد ضاقت عليهم مذاهب المعاش ، فأشبعوا دنياهم ذمّاً وهجواً وملأوا الأسفار بوصف

شرورها من مثل قول حريريهم :

إياك والدينا الدنية إياها شرك الردي وقرارة الاكدار
دار اذا ما أضحكت في يومها أبكت غداً تبأ لها من دار

أما مغابو الشر فلم نرَ لفلسفتهم كثيراً من الشروح الضافية ، وإنما وقفنا على قليل منها في أخبار وآراء بعض الصوفية والفلاسفة . وقد رأينا بعضهم لا يكتفي بتغليب الخير ، بل يذهب الى أنه لا شرّ على الاطلاق ، وأن الكون كله خيرٌ محضٌ من خيرٍ محضٍ

وما اختلاف المفكرين والفلاسفة وأصحاب الأديان بتعريف الخير والشرّ ، وتعيين أنواع كل واحد منهما بأقلّ من اختلافهم في الموازنة بينهما . كلا ، بل هو أكثر بكثير . واذا ما نحن استطعنا أن نرجع الى ثلاثة عدد مذاهب المختلفين في الموازنة فاننا لا نستطيع ان نرجع الى عدد معين مذاهب المختلفين في التعريف وتعيين الأنواع . ولا يدري مقدار عذر هؤلاء في استلافهم هذا الأ من جال نظره طويلاً في ميادين الطبيعة البشرية وسير كثيراً أحوال الافراد والجماعات ، وتأمل ملياً فيما يقع فيه الحسّ والعقل من الأغلاط ، وعرف جيداً ما للعادات والتقاليد من النفوذ والتأثير ، وما لها من المنافع والمضارّ ، فرجل أوتي هذا النصيب العظيم من الخبرة يعرف أنه ليس من البديهي معرفة ما هو الخير ، وما هو الشرّ . فلا يهزأ حينئذٍ بكثرة اختلاف المختلفين فيهما من أهل الأديان والفلسفات ، ولا يتهم على أقوام رأوا الخير كل الخير في تعذيب النفس وحرمانها من الشهوات الحيوانية ، ولا على آخرين ضادوهم كل

المضادّة فأوا أن الخير كل الخير في اللذات وانالة النفس كل ما تشتهيهِ .
وكذلك لا يعجب من قد وصفنا حظه من الاطلاع لأقوام يكون ،
لكثرة ما يضحك الناس ، وآخرين يضحكون من كثرة ما يكون ،
فسبحان من خلق بين هؤلاء البشر جذور الائتلاف والاختلاف ،
وجعل هذا التباين في الأفكار ، آيةً خالدةً قاضيةً بمزيد التبصر والاعتبار
عبر الحمير الزهراوى



الحب

« بين شوقي ووليّ الدين »

ترأّت له على مستشرف حجرتها صبحاً ، حين لم يلق عن اعطافه
ثياب الكرى ، والصبح كبسمه الرضى على الثغر الالمى ، والروض
كالأمل الغض في الفؤاد الفتى . فلما اعتدلت في نظره جانست محاسنها
محاسن الوجود ؛ فترامى اللحظان ، وتناجى القلبان ، وطارت رسائل
الوجد بين الروحين على أجنحة الزفرات تبعث حنيناً وأنياباً وهياماً
شديداً ؛ فذلك حيث يقول شاعر الشرق شوقي بك :

نظرة

ثم توالى كرور الاصباح ، وكما تكبر الاجساد تكبر الارواح ،
وكما تكبر الارواح تكبر الصبايات ؛ واللواعج ثمار تُسقى مغارسها بالدعوى ،
والشباب خصب تنضج به اللواعج ، ونسائم السحر تُغري الاشواق ،